أمحمّد بن أبي زيان القندوسي، طريقته الصوفيّة والأدوار المُتعددة لزاويته

د. علي نابتي،
جامعة سعيدة

الملخص :
برزت شخصية أمحمّد بن أبي زيان، المشهور باسم مولايّ بوزيان، خلال أواسط القرن **17**م. تلقى العلوم الإسلامية على يد العديد من المشايخ، أبرزهم مبارك بن العزيز، مُقدم الطريقة الناصرية، الذي لقنه التصوف على النظام الشاذليّ. أسس بن بوزيان زاويته بقصر القنادسة (ولاية بشار) لتتحوّل بعد حين إلى مركز ديني اجتماعي له سمعة كبيرة.
استقطبت شخصية بن بوزيان العلمية والروحية الكثير من التلامذة الذين جاءوه لينهلوا من علمه وتربيته الصوفية. لقد تمكن من وضع طريقة أساسها روح التسامح؛ فغالبية أتباعه يمتازون بالزهد والإيثار، شغلهم الشاغل هو تدارس القرآن الكريم والحرص على إشاعة المبادئ السمحة للطريقة الزيانية. والحال، فإنّ هذا المنهاج التربوي الروحي قد جذب للزيانية تقديس الأوفياء وانضمام مريدين جدد ناهيك عن إكرام الزاوية بالزيارات والعطايا. وكذلك أصبحت زاوية القنادسة دار سلام تستقبل بحفاوة الأغنياء والمساكين على حدّ سواء، أين يجدون الماعون والإجارة.
لقد ارتقى القائمون على الطريقة الزيانية مرتقا عاليّا جعل منهم وسطاء مهابي الجانب في صحراء لا وجود فيها لسلطة ضبط إذ كانوا يشرفون على تأمين القوافل العابرة لمسالك الصحراء الكبرى؛ وبمجرد استظهار ختم مولاي بوزيان تصبح القافلة في مأمن. لعلّ هذه المقدرة هي التي دفعت بجهات شتى إلى التماس التدخل المكين للزيانية.
كلمات مفتاحية : بن بوزيان، الطريقة الزيانية، زاوية القنادسة، التعليم الديني، حماية القوافل.

Résumé :
Mahmed ben Abou-Zian, plus connu sous le nom de Mouley-Bouzian, naquit, vers le milieu du XVIIe siècle de notre ère. Il fut élève de nombreux professeurs en renom et, notamment, du nommé Mobarek ben A'bd-el-Aziz, moqaddem des Nacerïa, qui

l'initia à l'ordre mystique des Chadelya. Ā Kenadsa il fonda une zaouïa qui est devenue le centre d'un ksar important.
De nombreux disciples vinrent bientôt se grouper autour de lui pour s'instruire et participer à sa baraka. C'est, en somme, une tariqa animée d'un grand esprit de tolérance; presque tous ses membres vivent très dignement, en dehors des choses de ce monde, faisant du bien autour d'eux, se livrant à l'enseignement du Coran et continuant à donner à l'ordre le relief de sainteté qui lui attire la vénération des fidèles, de nombreux adhérents et des ziara fructueuses.
Aussi, la zaouïa de Kenadsa est-elle considérée comme la maison hospitalière où riches et manants trouvent aide et protection. Les dignitaires de la confrérie sont autant d'apôtres du bien, de médiateurs écoutés, que les caravanes qui s'aventurent au grand désert, prennent comme guides. Le cachet de Mouley-Bouzian les rend inviolables, et, de toutes parts, on vient solliciter leur puissante intervention.
Mots clés :
Ben Bou-Zian, Zianïa, Zaouïa, Enseignement, Protection.

مقدمة:

يتناول هذا المقال شخصية وليّ صالح أخرج قصرا مغمورا من المجهول إلى المُتداول منذ القرن السابع عشر الميلادي، وبسط أمنا في منطقة كانت قبائلها مُتناحرة، بفضل عبقريته العلمية وكاريزميته الصوفية، فطوّع المكان ليُحوّله مجالاً حيويّاً لزاويته وجغرافيا خاضعة لقداسته الكرامية التي امتدت في الربوع الجنوبية الغربية والغربية الجزائرية، وفي الشرق والجنوب الشرقي من المغرب الأقصى، وإلى غاية السودان. إذن، من يكون هذا الوليّ؟ وما هي خصائص طريقته الصوفية في التربية والسلوك؟ وماذا عن تنظيم زاويته وسير عملها؟ وما هي الشواهد على إنجازاتها في تدبير السلم والأمن بين القبائل؟ وما طبيعة علاقاتها الخارجية؟

من تاغيت إلى القنادسة : الرجل المثالي والموقع المثالي..

هو أمحمّد بن عبد الرحمان بن محمّد بن أبي زيان بن عبد الرحمان بن أحمد بن عثمان بن مسعود بن عبد الله الغزواني؛ ولد بقصر بَرْبي بالقرب

من واحة تاغيت (**80** كلم جنوب ولاية بشار) عام **1062** هـ/ **1651** م. على غرار الأولياء الكبار، كابد حياة صعبة مليئة بالابتلاءات الخطيرة قبل أن ينتهي به المطاف بقصر القنادسة. عاش طفولة صعبة بعد وفاة أمه لتزداد تعقيدا بعد موت أبيه، ما اضطره إلى السفر صوب سجلماسة (المغرب)، ولم يكد يبلغ سن الحلم، بتشجيع ودعم من لدن أحد أعمامه المُقيم بالقنادسة حيث قصد مدرسة الفقيه الناصريّ طريقة الشيخ مبارك بن عزي العنبري الغرفي أحد أشهر علماء تلك الفترة الذين جمعوا بين علوم الظاهر وعلوم الباطن (القندوسي، م. م. **1320** هـ : ص. **27**).

تؤشر المناقب إلى إقامة بن أبي زيان عند شيخه زهاء العشرين عاما ثم سافر إلى مدينة فاس بعد وفاة معلمه، لإثراء معارفه بمدرسة سيدي مصباح أين أقام مدة ثمانية أعوام من **1089**هـ/**1678**م إلى **1097**هـ/**1689**م. خلال هذه الحقبة شهدت المغارب هولا من الفتن والحروب، وخطوبا من الأوبئة والكوارث الطبيعية غير أنّ ذلك لم يُثني من عزائمه بل راح ينهل من حلقات العلم والفقه التي كان ينشطها علماء كبار من أمثال الشيخ عبد القادر الفاسي الذي لقنه الحكم العطائية لـ ابن عطاء اللّه السكندري، وكذا الشيخ عبد السلام بن أحمد أوحمدون قسوس وطائفة أخرى من الفقهاء (التازي، ع. : **59**).

عاد الشيخ بن أبي زيان إلى موطن أسلافه القنادسة بعد رصيد وافر من العلم الشرعي والتصوف السني ناهيك عن الخبرات والتجارب بحيث قرر المقام بها ثم شرع في تأسيس طريقته الشهيرة "الزيانية" على النظام الصوفي الشاذلي بعد أدائه لمناسك الحج. إنّ اختياره لقصر القنادسة (تُعدّ القنادسة أهم دائرة وبلدية بولاية بشار، تقع هذه البلدة غرب الولاية على بعد حوالي **20** كلم تقريبا، يبعد عنها سد جرف التربة غربا بحوالي **30** كلم، منذ سنة **2009** تم ربطها بمدينة بشار بطريق سريع، كما أنها تعد أول بلدة تشهد توهج المصابيح عند اكتشاف الاحتلال الفرنسي للفحم الحجري.) كان كذلك لانسجامه مع خلاله في الزهد وطلب الخلوة، وما هي إلا سنوات حتى أقام قواعد زاويته إذانا بإدخال المنطقة وجغرافيتها في تحوّل اجتماعي جديد جاء ليحل محل السلطة الرمزيّة التي كانت قائمة من ذي

قبل بالقنادسة ومجالها الحيويّ، الذي تجوب فيه اتحادية قبائل بدوية مستقلة متكوّنة من: بني قيل، ذوي منيع، وأولاد جرير (HANI, A. 2002 : 43).

تزوج الوليّ الصالح بن أبي زيان بامرأة تسمى أم كلثوم أنجب منها أربعة أولاد وخمس بنات. شغلت سيدة الزاوية مكانة أساسية في تسيير شؤونها ومخازنها، وبعد وفاتها عام **1125هـ/1713م** تزوج الشيخ امرأة ثانية هي ابنة فقيه بارز بقصر المعيز بـ فجيج (جنوب المغرب) أنجب منها ولديّن (اليعقوبي، ع. : **325**).

منهاج التربية الصّوفية عند الشيخ أمحمّد بن أبي زيان:

يرى الشيخ بن أبي زيان «بأنّ الوليّ لا يصبح وليّا إلا إذا اتصف بعشرة صفات: الصبر، الزهد، القناعة، النُصح، وعدم السؤال يمشي حافي القدميّن، ينام على الأرض، يقيم اللّيل والناس نيام، يهجره ذوو القربى وهو يحرص على وصلهم» (اليعقوبي، ع. : **324/323**). نستشف أنّ طريقة الشيخ تقترب من المقام أكثر من اقترابها من الحال، فهو يفضل العلم والمعرفة على الشطح، كان الشيخ يذكر كثيرا جواب شيخه مبارك بن عزي لأحد تلامذته عندما سأله عن الحضرة التي كان يمارسها بعض الشيوخ، قال له :« أما الحضرة فهي التي نحن فيها دون انقطاع، أما الآخرون فيحددون حضرتهم في يوم معلوم، تُقام حضرتنا في الصباح، وفي المساء وفي منتصف النهار لا تنقطع أبدا»، أراد بن عزي أن يُفهم تلميذه بأنّ الحضرة التي يقصدها هي لطلب العلم من العلماء وأهل الذكر، لقد أوضح له أنّ حضرتهم ساميّة جامعة للذين يعلمون ويعملون على العكس من تلك الحضرة التي تجمع العالم بالجاهل، ختم الشيخ ابن عزي حديثه : «بأنّ الطرق إلى اللّه عديدة، وحضرتنا تكون بالسكينة والوقار وليس بالرقص والشطح والجالس في حضرتنا ذاكر بقلبه وسامع لعلمه» (اليعقوبي، ع. : **428**).

يكشف لنا كتاب "منهل الظمآن" عن الوظيفة التي يقوم بها المريدون يوميّا عقب صلاة الصبح: - الاستغفار مائة مرة؛ الصلاة على الرّسول بالقول:«اللّهم صلي على سيّدنا محمّد النبي الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما» مائة مرة؛ ذكر "لا إله إلا اللّه" ألف مرة وعند كلّ مائة يقول محمّد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، أما المتقدمون في الطريقة فيتلون

يوميّا خمسة أحزاب من القرآن ويقرؤون "دليل الخيرات" للإمام الجازولي وإن تعذر عليهم القيام بذلك فعلوه مرة كلّ أسبوع بالإضافة إلى الصّيام يوميّ الاثنين والخميس أو صيام ثلاثة أيام من كلّ شهر، وهو ما يُعرف بالأيام البيض، والحرص على مطالعة كتاب الحكم العطائية، وكتاب إحياء علوم الدين، وكتاب قوت القلوب.

ضمن هذا السياق فإنّ الزيانية ترتكز على الفقه والتصوف، فشيخها كان دائم التكرار لعبارة "السبحة واللوح حتى لخروج الروح". ينضم المريدون في الطريقة الزيانية بعد إجراء رياضة روحية وحسيّة تكون بالصوم والمواظبة على الصلاة، ثم يُفسح المجال للمريد الجديد للانضمام العلني إلى الطريقة بتلاوة اليمين والالتزام بالآتي: أن لا يبوح بأسرار الطريقة وأسرار إخوانه المريدين؛ عليه بطاعة المقدم والشيخ؛ عليه ببذل الجهد في تطبيق أوراد الوظيفة الزيانية. بعد ذلك يختتم حفل الانضمام بتلاوة الفاتحة وتبادل التحية بين المريدين، ومن هذه المحطة يبدأ المريد حياة جديدة بالتزام الجماعة

بالمواظبة على الصلاة وقراءة الحزب الراتب (Rinn, L. 1884 : **86_93**).

وهنا ينبغي أن نقول بأنّ التزكية الكاملة لا تتحقق إلا بصحبة المربي الحيّ كما يؤشر على هذا الشيخ مولاي العربي الدرقاوي في رسائله: «لو كان الانتساب للأولياء المربين الأموات كافيا في التربية، لاكتفى الجميع بروح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذ روحه هي أعظم روح مربيّة على الإطلاق " الرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم"».

إنّ التربية الصوفية أو الروحية من أعظم المهام الدينية لما تمنح لطالبيها من مكارم الأخلاق والاتصاف بصفات أهل الخير والإحسان، وهو البلسم والترياق الشافي الذي تحتاج إليه المجتمعات خاصة في هذا الزمان الذي أصبح فيه الإنسان عبدا للمادة وأسيرا للشهوات وهنا تبرز الحاجة الملحة إلى ضرورة العودة إلى التراث الصوفي التربوي لأولئك الرجال والنساء الذين عرفوا كيف يُوازنوا بين دنياهم والاستعداد لآخرتهم؛ ذلك أنّ عالم المادة

ظلمة وعالم الروح نور، والانتقال من الظلمات إلى النور يحتاج إلى تنوير الباطن وتلك من مهام الشيوخ الحقيقيون الملهمون في التربية الروحية. وفي السياق ذاته يقول جل جلاله : «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» وأهل الذكر هم المتخصصون، والعصر الذي نعيش فيه هو عصر التخصصات.. والمتخصصون في طريق المعرفة باللّه هم أصحاب الحقيقة الواصلون المُوَصّلون، الذين خبروا طريق الوصول ومسالكه وتعرفوا على معادن النفوس وطبائعها المُختلفة.

إنّ بلوغ السّر الذي يَرومه الكثير من المريدين ينتهي بصاحبه عند الوقوف عند باب الشيخ، بعد تخطي عشرة أبواب وإزاحة الحجب التي تغطيها. تستعرض المناقب ذلك المسار كما يلي (التازي، ع. : **13/12**)

عليك بإزاحة الحجاب عن:	لكي تصل لباب:
البغض	المحبة
التكذيب	التصديق
الجِسارة	الحياء
الإهانة	التعظيم
الجهل	المعرفة
المباينة بين أفعالك وأفعاله	التخلق بأخلاقه والتعلق بأوصافه
التدبير والاختبار	الإرادة
تضييع حقوقه	الأدب
المخالفة	المتابعة
الشك	اليقين

هذا هو المسار الذي يحاول أن يسلكه الكثير من المريدين غير أنّ القلة منهم تفلح في بلوغ ذلك لأن الطريق طويلة وتشترط نكران الذات وإيثار الآخر. وهذا ما كان الوليّ محمّد بن أبي زيان يدعو ويُربي عليه مريديه، ولا عجب أنّ الزّاوية الزيانية في عهد مؤسسها كانت فاعلة ذات إشعاع واسع بفضل قيام الشيخ بها وعليها، فكانت مؤسسة لتخريج الذاكرين السالكين على الهدي الأحمدي المحمدي.

الزيانية وزاويتها : طريقة صوفية جديدة و زاوية متعددة الأدوار..

ما إن قفل راجعا إلى موطن أجداده القنادسة، عمل بن بوزيان على تأسيس طريقة صوفية تُميّز جهده الصوفي على النظام الشاذلي كما سعى إلى تشييد زاوية تحوّلت إلى مركز علمي لتدريس الشريعة الإسلامية والتربية الصوفية، وتقديم الخدمة الاجتماعية وتدبير السلم الاجتماعي ناهيك عن الدور السياسي.

تمكن الشيخ بفضل تربيته الصوفية الناصرية الشاذلية من استقطاب عدد كبير من التلامذة والأتباع والمحبين، لقد جاءوه من أماكن بعيدة ليس لطلب العلم فقط ولكن لنيل البركة قيمة ذلك العصر في تلك الأمصار. أولى الشيخ عناية كبرى لتحفيظ القرآن وتعليمه بحيث بنى مدرسة وجامعا وأنجز كثيرا من البيوت لإيواء الطلبة الوافدين من مناطق بعيدة وتكفل بإطعامهم بالرغم من تزايد عددهم كما سهر على تفقد أحوالهم إذ خصص يوم الأربعاء بعد صلاة العصر لدراسة انشغالاتهم، ومن أنصع صور تلك العناية أنه كان يأمر بتحضير طعام خاص بهم، ومواساتهم غالب الأوقات بشيء زائد على أقواتهم (التازي، ع. : **60**). يقوم الشيخ بعد صلاة الظهر والنوافل بتدريس صحيح البخاري إلى غاية صلاة العصر؛ بين صلاتي العصر والمغرب ينقطع للذكر في خلوته. قبل أداء صلاة المغرب يخصص حيّزا لتجاذب أطراف الحديث مع الطلبة في مسائل الشريعة والحياة، بعد ذلك يتلُون الحزب ثم يُلقي الشيخ درسا في الفقه إلى غاية إقامة صلاة العشاء. وهكذا دواليك يتجدد اللقاء التربوي التعليمي الروحي بين الشيخ وطلابه مع أنفاس كلّ صبح ليقرؤوا الحزب الراتب جماعة ثم ينصرف الشيخ إلى خلوته للذكر وأداء الورد إلى غاية منتصف النهار، ليجتمع بالمريدين ويستقبل الزوار، تروي المناقب أنّ عدد هؤلاء كان يبلغ في بعض المرات الأربعمائة زائر. لم يعرف هذا البرنامج اليومي انقطاعا إلا نادرا عندما كان الشيخ يتنقل إلى تاغيت لزيارة قبري والديّه. داوم الشيخ بن بوزيان على هذه الوظيفة إلى أن وافته المنية يوم **11** رمضان من سنة **1145هـ/1732م** (القندوسي، م. : **163**).

يحفل السجل الكراميّ للوليّ بن أبي زيان بعدد من الكرامات قام بسردها صاحب كتاب "منهل الظمآن ومزيل الكروب والأحزان في كرامة شيخنا

العارف بالله الحاج محمّد بن أبي زيان" بحيث تنوعت بين رفع المظالم ونجدة المستغيث فالتحكم في الظواهر الطبيعية واختراق المسافات، ومداواة المريض ومعاقبة اللّصوص، وإنجاب العقيم، وإطعام الطعام والمكاشفة والبركة في القليل ثم سلب المخالفين. وعندما سئل الشيخ عن أصل معرفته قال: «معرفة الله عزيزة لا تدرك بالعقل بل تقتبس من الشرع ثم تتفرع عنها حقائق كثيرة على قدر القرب من الله تعالى» (التازي، ع. : 57). تعكس هذه الكرامات السيادة الرّمزية للوليّ على الفضاء والزمان بحيث أثر في من حوله وما حوله، ومن ذلك أنّ الزاوية سهرت على إقرار السّلم الاجتماعي من خلال تعيين شيخها لقاضي يتولى صلاحيات واسعة من أهمها الإشراف على تحرير وتوثيق عقود مختلف المعاملات من شراء ورهن وتوثيق ملك عقاري أو إيجار وكتابة دين، كما كان للزاوية هيئة خاصة تنظر في الأحوال الشخصية.

تنظيم وسير عمل الزاوية الزيانية:

يتصدر شيخ الزاوية هرم التنظيم فيما يتوزع الإخوان والأخوات في قاعدته بوصفهم فاعلين اجتماعيين يضبطون مختلف أنشطتهم وتحركاتهم بأخلاق التصوف السني .

1 . الشيخ : هو رئيس الطريقة الزيانية القندوسية، ويُطلق عليه كذلك مولاي الطريقة، خليفة الورد، هو الوريث الروحي لمؤسس الطريقة. يتخذ في الغالب من مقر الزاوية سكنا له. وهذا ما فعله الوليّ بن بوزيان ودأب عليه ورثة سره. يجتهد الشيخ ليكون أسوة حسنة لأتباعه، ويشرف بنفسه على السير الحسن لشؤون الزاوية التعليمية والخيرية والتحكيمية، والاقتصادية.

2. الخلفاء أو النواب: هم من ينوب عن شيخ الطريقة ويمثلونه في فروع الزاوية، لتمكين المريدين من الاتصال بالشيخ عن طريقهم خاصة عند بُعد المسافة عن الزاوية الأم أو انعدام الأمن. يخضع اختيار الخلفاء لشروط صارمة في طليعتها العلم والتقوى.

3. المُقدَمون: ومفرده مُقدَم وهو من يتقدم لخدمة الزاوية مُمَثِلا لشيخها. حيث يكتسي تنصيبه أهمية وحيطة كبيرة بوصف المقدَمين هم سفراء الطريقة و أي تصرف غير محسوب قد يؤثر سلبا على سمعة الزاوية، ولهذا

السبب أقدمت الزيانية على تعيين بعض المقدَمين من خارج بعض فروع القبائل التابعة لها. والعادة تقضي أن يُختار المقدم من لدن المريدين أو الأتباع ويُقدم للشيخ لتزكيته. ويحدث أن يرث المقدم هذا المنصب عن أبيه متى توفرت فيه الشروط. ينقسم المُقدَمون إلى: المُفوضون وهم من أذن لهم الشيخ بتلقين السر؛ أما العاديون فتقتصر مهامهم على تمثيل الشيخ لدا الإخوان وتبليغهم أوامره وعقد اللقاءات وحلقات الذكر والتشاور وجمع الفتوحات.

4. القيّم على خزينة الزاوية: في البداية، لم ينشغل الشيخ بن بوزيان بجمع الزيارات والفتوحات التي كان يجود بها المريدون حيث كان أقرباؤه يتولون تسيير إنفاقها. ولما رأى الشيخ تفشي الإسراف والتبذير، سارع إلى تكليف ابن أخيه الحاج عبد الرحمان، لورعه وصلاحه، مخاطبا له آمرا : «احرص على مال اللّه واصرفه في عبيده وأحسن تصريفه فإنّ اللّه سائلني عنه وأنا سائلك وكلنا مسؤولون عند اللّه. اللهم أني خرجت من تبعاته وخلفتك فيها» (اليعقوبي، ع. : **371**).

5. الرقاس : ويطلق عليه كذلك الرقاب أو النقيب، يُكلف بإيصال البريد ويسعى لربط الصلة بين شيخ الزاوية والمُقدَمين ومن خلفهم المريدين، يسهر الرقاس على نقل الأخبار وإيفاد الشيخ بعروض حال مُفصلة. تفردت الطريقة الزيانية بتطوير نوعية هذه الوظيفة حيث أصبح رقاسوها ليس مجرد مرافقين عاديين للقوافل بل مرشدين يجمعون بين الكفاءة والإمامة. ويعود الفضل لهؤلاء في الانتشار الواسع للطريقة الزيانية في الجزائر والمغرب والسودان الغربي (Rinn, L. 1884 : 415).

6. المداح : لديه مؤهلات شعرية وبلاغة كلامية، تتوزع وظيفته بين مدح الطريقة ومناقب شيخها وكراماته، ونشر الأخبار حيث يستعين بآلة دف لجلب انتباه أهل القصر وتجميعهم، يمكن القول أنه مذيع بامتياز يسهم في الدعاية للطريقة وإشهار قيّمها.

7. الإخوان والأخوات : هم المريدون أو الأتباع المخلصون للطريقة ولشيخها، المحبون له في حياته وبعد مماته، وتزداد عواطفهم تدفقا في الاحتفالات التي تنظمها الزاوية مثل المولد النبوي الشريف. يمثل المريدون دعامة وسندا للطريقة ولهذا يحرص الشيخ على تربيتهم وتلقينهم الذكر والأوراد أو من

خلال تكليف نوابه ومُقدَميه. بلغ مجموع مريدي الطريقة الزيانية في الجزائر **3.400** مريدا في أواخر القرن **19**م (Rinn, L. 1884 : 415).

الزاوية الزيانية وآليات بسط الأمن في ربوع الصحراء :

تكاد الزاوية الزيانية تتفرد عن باقي الزوايا الإسلامية بالجزائر بدور مهم في حماية القوافل التجارية التي تعبر إقليمها. أصبح التجار يحرصون على التماس حماية الزاوية لبضائعهم مقابل تقديم مال وهدايا لشيوخها، يطلق عليه "الزيارة". يُعيّن الشيخ عونا يُدعى "الرقاس" أو "الرقاب"، يحظى بثقته وتتوفر فيه شروط : في مقدمتها إحاطته والتزامه بالشريعة والولاء لمبادئ الطريقة الزيانية يضطلع الرقاس بمهمة دليل الصحراء وبوظيفة إمام القافلة في الآن ذاته، فهو مبعوث شيخ الزاوية وممثله (Rinn, L. 1884 : 413) «يُزوده الشيخ برسالة تحمل ختم الزاوية. وما إن يحلّ على قبيلة، يستظهر رسالة الشيخ (رضي الله عنه)، فتتقبلها القبيلة. فترشده صوب المسالك الآمنة والموثوقة» (اليعقوبي، ع. : **587**). يمكننا القول بأنّ نجاح الرقاس في مختلف المهام الموكلة إليه قد أسهم بشكل كبير في الانتشار الواسع للطريقة الزيانية، بالشمال والجنوب، وعلى طول مسالك القوافل. حيث تمكن شيوخ الزيانية من إخضاع إقليم عريض لسلطتهم الروحية لفترة طويلة، استمرت بوساطة هذه الممارسة إلى عهد قريب.

كانت الزّاوية كمؤسسة تيوقراطية تجسد إمارة الخلاص لهذه المجتمعات المحلية الصّحراوية في أوقات الضعف أو غياب أو انهيار سلطة الدولة الحاكمة فلقد كانت تمثل نمطا من السّلطة أطلق عليه الأنثروبولوجيون دولة الحد الأدنى- L'Etat minimal المنسوب لنوع من المجتمعات المُجزئة "Sociétés Segmentaires" (JAMOUS, R. 1981 : 201ـ202). ضمن هذا المساق، أصبحت الزاوية القندوسية الزيانية تُتعت بحاميّة القوافل التجارية، والمؤتمنة على الودائع في فضاء كان يمثل حقل تصيّد الفرص من لدن قبيلتيّ ذوي منيع وأولاد جرير؛ بهذا الصّدد علّق الفرنسيان Depont وXavier على تمكن شيخ الزاوية الزيانية من بسط

السلم والأمان في الناحية بالقول: «عُرف الشيخ بصرامته في معاقبة اللّصوص وقُطاع الطرق (...) وهو الأمر الذي توجس منه اللّصوص خيفة فكانوا يتجنبون القوافل التي يتقدمها مُقدَمُو الشيخ أو أقاربه أو أتباعه، لقد أصبح ذكر الشيخ عند قُطاع الطرق مرادفا لشرطي الصّحراء» (DEPONT, O. et COPPOLANI, X. 1897 : 498). وفي السياق ذاته، تؤشر أهم التقارير العسكرية الفرنسية التي رصدت أنشطة الزوايا بالجزائر إلى أنّ إيرادات الزاوية الزيانية كانت تتزايد خاصة عند نشوب اضطرابات ونزاعات بين القبائل مما زاد في تنوّع وتعدد أملاكها العقارية بالجزائر والمغرب على حد

سواء (**414**ـ413 : Rinn, L. 1884). تحققت هذه المنجزات الباهرة في ظلّ

المكانة الروحية المؤثرة للوليّ أمحمّد بن أبي زيان والتي أكسبت قصر القنادسة سمعة وهيبة كبيرتيّن، وجلبت لخزائن الزاوية خيرات كثيرة كان يستعملها الشيخ في أعمال التكافل الاجتماعي لفائدة المحتاجين، ولتغطية نفقات المدرسة القرآنية. ومن مظاهر هذه السلطة الروحية أنّ قصر القنادسة يكاد يكون القصر الصّحراوي الوحيد الذي لا يحيط به سور دفاعي، وكان شعار هذا الانجاز الأمني هي المقولة التي تناقلتها الألسن

نقلا عن الشيخ " لي بغى الهنا يجي هنا ـ من أراد الهناء فليأتي إلى هنا"، في

إشارة إلى القنادسة. والحال، فقد تحوّل قصر القنادسة أرض استضافة وإغاثة، ومكان عبور بفضل المُوروث التربوي الصوفي والكرامي الذي تركه الشيخ، زد عليه انتسابه إلى آل البيت في قرن شكّل فيه الشرف "قيمة دلالية".

تُلخص الصّحفية إيزابيل ايبرهارت (**1877**- **1904**) كأبرز شاهد على قصر القنادسة والزاوية الزيانية من الداخل مطلع القرن العشرين، مُشيدة بمكانة ودَور الزيانية، حيث أوضحت أنّ الوليّ أمحمّد بن بوزيان نجح في تنظيم أتباعه ضمن جمعية سلمية تُعنى باستقبال الضيوف واللاجئين.

تحدثت عن وظائف الزاوية ومن أهمها: الحق في اللّجوء حتى للجناة الذين يبلغون مأمنهم ما إن يدخلوا حرم الزاوية، بحيث يدخل المرابطون كفاعل أساسي في تسوية مُختلف القضايا كرد المتاع المسروق لأصحابه، ودفع دية المقتول. تخبرنا إيزابيل عن وظيفة الإطعام ك قيمة اجتماعية، لقد لاحظت عدم وجود المتسولين في شوارع قصر القنادسة بفضل إدماجهم مهنيا كخدم وعمال أو رُعاة، فهذا الدور الاجتماعي الخيري أعطى للزاوية الزيانية شهرة وصدى كبيريّن (Charles- Roux, E. 2003 : 42).

الزيانية وعلاقتها الخارجية:

وُصفت علاقات شيوخ الزيانية مع أغلب الطرق الصوفية وقبائل الناحية بالحسنة، من منطلق تجنبهم الانحياز لحلف قبلي على حساب حلف آخر، بحيث أسهمت هذه السياسة في نجاح مساعيهم قصد إصلاح ذات البين، وفي حماية القوافل التجارية. لقد أكسبهم هذا النهج قوة معنوية ناهيك القوة الاقتصادية إذ جعلهم، من جهة، في منأى عن الاستنجاد بسلطان المغرب وتحاشي الاصطدام مع الطريقة الطيبية إثر تحركاتها السياسية أو الدينية بالمنطقة، من جهة أخرى. وعلى صعيد آخر، تحاشى شيوخ الزيانية الانضمام إلى الحلف الذي تزعمه أولاد سيد الشيخ على الرّغم من انخراط عدد من الشراقة ضمن الطريقة الزيانية، لأنّ عددا كثيرا من عائلات أولاد سيد الشيخ الغرابة كان منخرطا في الطريقة الطيبية.

أما عن علاقة الزيانية مع الإدارة العسكرية الفرنسية فكانت مُقامة بما يتماشى مع الطبيعة الجيوسياسية لموقعها الحدودي بين الجزائر والمغرب، حيث وُصفت بالعلاقة المُتسمة بالوعي المُحافظ على خدماتها التعليمية والاجتماعية والتجارية بعيدا عن حلف الحرب لاسيما في ظلّ التضييق الذي فرضته الإدارة العسكرية الفرنسية على الطرق الصوفية المسلمة في الجزائر منذ عام **1880** فيما تعلق بجمع ما يسمى بالزيارة حيث رأى الفرنسيون في ذلك تعزيزا ماديا للثورة ضدهم، فلم يكادوا يخمدون ثورة أولاد سيد الشيخ الأولى عام **1879** حتى باغتهم الشيخ بوعمامة بثورته في أبريل **1881**. لم يمنح ضباط فرنسا رُخص جمع الزيارة إلا نادرا مثلما فعلوا

ذلك مع شيخ الطبية وشيخ الزيانية (Rinn, L. 1884 : **94_95**). أدرك

الاحتلال الفرنسي قوة مؤسسة الزّاوية، فانتهج أسلوبا متطورا لإدماجها ضمن إستراتيجية الاحتواء والتدجين، وهو الأسلوب الذي مكّنه من «التحكم في القاعدة المادية للزاوية دون أن يمس بشرعية تواجدها الفعلي» (LAROUI, A. 1980:141) لأنّ بقاء الزاوية ممتلكة لكافة مقوماتها البشرية والاقتصادية كان يخدم الإدارة الفرنسية العسكرية، باعتبارها إحدى الضرورات السياسية لتوازنه العام، تكشف مقاطع من التقرير الذي أعدّه كلّ من " دوبون - Depont وكزافيي- Xavier " عن مدى أهمية الإسراع في تطبيق سياسة احتواء الزّوايا الرافضة للوجود الفرنسي بالجزائر بـ «الاتصال بشيوخ الزّوايا التي لازالت تناصبنا العداء من الأجدر لنا البحث عن الوليّ المرابط في خلوته لنُسمعه كلمات السّلام، ونطمئنه عن حسن نوايانا حيال أتباعه، وإذا نجحنا في هذه الخطة سنمرر خطابنا من خلاله إلى الجماهير الطائعة لأوامره والمجتنبة لنواهيه (...)» (لوكا، ف. و فاتان، ج. ك. **2002** : **109/110**).

في الأخير، إنّ اختيارنا إلقاء الضّوء على شخصية الوليّ الصالح أمحمّد بن أبي زيان وعلى زاويته هي مساهمة تاريخية ودلالية ترمي إلى مقاربة مسار شيخ طريقة صوفية في الجنوب الغربي الجزائري، حيث من خلال قراءة تاريخ حياته نقرأ تاريخ الزاوية الزيانية ومريديها. فبإقامة بن أبي زيان ضمن هذه الجماعة، عمل على إعادة تشكيل فهمها للزمان والمكان؛ لقد منحها ذاكرة وتمثلا لذاتها. لقد أسهم وفق ذلك في وضع آليات جديدة سُخرت في خدمة التكافل الاجتماعي والتمكين للسلم والاستقرار.

المراجع:

- التازي علي بن عبد القادر. منهل الظمآن ومزيل الكروب والأحزان في كرامة شيخنا العارف بالله الحاج محمّد بن أبي زيان، القنادسة (ولاية بشار): مخطوط بالخزانة الزيانية القندوسية، غير مصنف.

- اليعقوبي عبد الرحمان منيان. فتح المنان في سيرة الشيخ محمّد بن أبي زيان، القنادسة (ولاية بشار): مخطوط بالخزانة الزيانية القندوسية، غير مصنف.
- القندوسي محمّد المصطفى بن الحاج البشير. طهارة الأنفاس والأرواح الجسمانية في الطريقة الزيانية الشاذلية، القنادسة (ولاية بشار): مخطوط بالخزانة الزيانية القندوسية، غير مصنف.
- فيليب لوكا، جون كلود فاتان (2002). جزائر الأنثروبولوجيين - نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، تر: محمد يحياتن وآخرون الجزائر: منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال.
- HANI Abdelkader (2002). Bechar et sa région entre histoire et légendes, Oran: Éd. DAR EL GHARB.
- RINN Louis (1884). Marabouts et Khouan, étude sur l'Islam en Algérie, Alger: Adolphe Jourdan, Libraire-Éditeur.
- JAMOUS Raymond (1981). Honneur et Baraka, les structures sociales traditionnelles dans le Rif, Paris: Éd. de La Maison des Sciences de L'homme.
- DEPONT Octave, COPPOLANI Xavier (1897). *Les confréries religieuses musulmanes*, Alger: Adolphe Jourdan, Libraire-Éditeur.
- CHARLES - ROUX Edmonde (2003). Isabelle du désert, Paris: Éd Grasset.